

ملحمة شيزر والفارس الشاعر

بقلم : عبد القادر حداد

يعد كتاب « الاعتبار » لاسامة بن منقذ سيرة ذاتية استرجع فيه صورا من ماضيه الحافل بالفتوة والمغامرة ، والمقاومة التي أبداها الاجداد أيام حروب الافرنج ، واسامة : من بني منقذ الكنانيين المضرين ، امراء « شيرز » القلعة الاثرية التي سكنوها في اواخر القرن الخامس الهجري ، وظلوا يقارعون منها الصليبيين حتى منتصف القرن السادس حيث استلم الريادة صلاح الدين الأيوبي . . وقد سماه الذهبي « أحد أبطال الاسلام » ووصفه ابن الاثير في (الدولة الاتابكية) بأنه « كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها » . وقد كان شاعرا ، ومن شعره يرثي أهله وقد أودى بهم زلزال عام (٥٥٢) هـ ، قوله :

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم قلبا أجشمه صبيرا وسألوانا
فلو رأوني لقالوا : مات أسعدنا وعاش اللهم والاحزان أشقانا
هذي قصورهم أمست قبورهم كذاك كانوا بها من قبل ، سكرانا

— وأما شيزر ، فأكمة صخرية على بعد خمسة عشر ميلا الى الشمال من حماه منتصبة على ضفة العاصي الغربية يكللها حصن لم يزل قائما لليوم معروفا باسم « سينجر » تحريف « شيزر » .
ويلتف نهر العاصي حول الأكمة من جهاتها الثلاث ، وقد ورد اسم شيزر في بيت قديم لامرئ القيس :

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة فشيزرا

وفي آخر لعبيد الله بن قيس الرقييات :

فوا حزنا إذ فارقونا وجاوروا سوى قومهم ، أعلى حماة وشيزرا(١)

(١) من مقدمة كتاب « الاعتبار » طبعة جامعة برنستون ١٩٣٠ بتحقيق فيليب حتى ، بتصرف .

طُفُّ بِنَا يَا دَلِيلُ ، كُلَّ مَكَانٍ
عَاشَ فِيهِ الْأَجْدَادُ عَبْرَ الزَّمَانِ
عَلَّ فَوْقَ الْجُدْرَانِ أُسْطَرَ مَجْدِي
تَرَكْتُ سِرَّهَا عَلَى الْجُدْرَانِ
ثُمَّ دَعْنَا مَعَ الْخِيَالِ إِذَا تُنْمَدُ -
بِتَ بِنَا مِثْلَ غَيْبَةِ النَّشْوَانِ
ذَاكَ مِنَّا الَّذِي يَقُولُونَ عَنْهُ :
هَيَّانُ شَاعِرٍ هَيَّانُ !
خَطَرَاتُ الْخِيَالِ تَعْبَثُ بِالْقَدِّ -
بِ وَتُنْحِي دَفَائِنَ الْأَشْجَانِ
حَمَلْتَنِي لِأَعْصِرِ غَابِرَاتِ
بِجَنَاحِينَ مِنْ رُؤْيَى وَأَمَانِي
يَوْمَ نَادَى الْهُوَى الْمَلِيحُ فَلْيَيْدُ -
بِ نَدَاءِ الْهُوَى غَدَاةَ دَعَانِي
وَهَفَّتْ بِالْفَوَادِ ذَكَرِي جِدُودِ
حَيَّةً مَا تَزَالُ فِي وَجْدَانِي

وبنات الأحلام أشرفن في عا-
ل من الفن ، هنّ فيه روائي
فأرين القديم وهو جديد
ما طوته الأيام ليس بفان
يوم جئنا التاريخ بالأمس نستنه-
ديه في « شيزر » سبيل الأمان
وقصدنا لساحها تتملّى
صفحات الأيام والأزمات
فبدا الحصن فوق منحدر الوا-
دي عروساً في زيها الفتان
وأطاف العاصي بجنيته نشوا-
ن بهي الإشراق والجريان
ثمما زين المفضض هيفاً-
ء لعوباً ، في كفها الريان
هامة حرة أقامت على الده-
ر وأهل العدوان في عصيان

ما حَتَّ كِبَرُهَا اللَّيَالِي . وَذَلَّتْ
تَحْتَ أَسْوَارِهَا صُرُوفُ الزَّمَانِ
هِيَ الْفُ الْخُطُوبُ تَقْرَعُهَا بِالصَّ -
يَدٍ مِنْ أَهْلِهَا أُسُودِ الْعَوَانِ^(٢)
فِي خِضَمٍّ مِنْ الصَّلِيِّ كَانَتْ
دُرَّةً يَهْتَدِي بِهَا كُلُّ عَانِ
وَلِيَالِي « أُسَامَةَ » مَائِلَاتُ
وَأَحَادِيثُ الْمَجْدِ عَنْهُ ، دَوَانِي
قَامَ لِلْبَدْلِ لَا يَنِي يَتَحَدَّى
وَيُذِيلُ الطَّغْيَانَ بِالْإِيمَانِ
هُوَ فِي السَّاحِ أُمَّةٌ ، جَمَعْتَهَا
هَمَّةٌ مِنْ عَزِيمَةٍ وَتَفَانِ
وَإِبَاءِ النُّفُوسِ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ
تَحْتَوِيَهُ كَثَافَةُ الْأَبْدَانِ

(٢) العوان : الحرب التي قوتل فيها مرة بعد الأخرى وهي أشد الحروب وجاءت هنا ، من باب اقامة الصفة مقام الموصوف .

فإذا فاضَ ، فالأبيُّ فِداءً
عنده العيشُ والردي سِيان
والذي يفقدي الربوعَ رَضِيًّا
لا يُيالي طوارقَ الحدَثانِ
شدَّ في الرَّوعِ فارساً لا يخافُ آلَ -
هولَ يُدني مَنِيَّةَ المتفاني
وجوعُ البُعَاثِ بدَّها الخو -
فُ وأضحتُ في قبضةِ العقبانِ
بعدما أقبلوا يجرُّونَ أحلامَ -
مَ السكارى ، يا ضِلَّةَ السكرانِ
وأَتَوْا كالجرادِ يلتنهم الأرز -
ضَ . هُمُ تحتَ غايةِ الصليبانِ
قد أراهم !! كأنهم إذ يُغدُّو -
نَ المطايا ، ربائبُ الشيطانِ
حملوا رايةَ المسيح ، وجَلَّ آلَ -
حُبُّ أن يُمتطى إلى العُدوانِ

لبسوا مسحة التدين حيناً
ورسوها في أكثر الأحيان
جربونا فلم يروا غير أهل
لفداء ، وفتية إطعان
ورموا أرضنا بكلِّ بلاء
وأرادوا حياتنا للهوان
نحن من خاصم الزمان لأننا
نحمل الفكر والضيا للزمان
والتقى ضدنا الظلام وأهلوه -
ه ، وساروا على خطى الحشران
فأدنا بدولة الحق والإنس -
لام من أمة الضلال العاني
والذي انقض من ذرى عاليا
في جبال الشمال ، للميدان
صار لحناً على الشفاه طرياً
هتفت باسمه شفاه الحسان

حملته عَبرَ اللَّيالي الخَيايا
قبساً شقَّ حالكَ الألوان
رفاً مثلَ الهلالِ ووسطَ دِياجِ
وأنارِ السَّييلِ للركبانِ
قد أتاكمُ !! كأنه أسدُ ألغا -
به ينقضُ عارمَ العُنفوانِ
هو يا دهرَ المعجزاتِ صلاحُ ال -
دينِ يَهْمِي لِنَجْدَةِ الظمآنِ
نشرَ الرايةَ التي قد طوتها
فرقةٌ في الديارِ والإخوانِ
وأعادَ الشتيتَ صفاً مَكِينا
فقصيُّ الراياتِ في السَّاحِ داني
وجنودُ الرحمنِ في زَحْمَةِ الأهد -
وال أهلٌ في طاعةِ الرحمنِ
مزَقُوا رايةَ التَّعصُبِ لِلجِدِّ -
سِ وخاضوا في لُجَّةٍ من تَفانِ

كلهم ضمّ للنزال صفوفاً
جمعتها وشائج الإيمان
فإذا الأسودُ البعيدُ قريبُ
ليسَ في الله فرقةُ الألوان
جمعتهم عقيدةُ الحقِّ إخوا -
نأ ولاذوا براية القرآن
ثم كروا ، ولا تُعيقُ المنايا
رهبةً من « جماعة الرهبان » (٣) !
فكأنني بجند « خالد » عادوا
يزحمون الميدان بالفرسان
وأسود اليرموك في ساحة البذ
لِ تداعوا لفدية الأوطان
خلقُ البذل والفداء أصلُ
عندنا يا سلالة الطغيان

(٣) في مؤتمر « كلارمونت » ألقى البابا « أوربانوس الثاني » خطابه المشهور ، داعياً إلى استنقاذ الأرض المقدسة من أيدي المفتصبين ؟! فاجتمع الرعايا وعشاق الفانمات وتناطوا باكتافهم صليباناً حمراً بقيادة بطرس الناسك وكان شعارهم : هذه ارادة الله !!!

كلُّ شبرٍ سقته فيضَ دماءٍ
 وحتت فوقه الضلوع الحواني
 مهجة حرة حداها هداها
 فروت مهجة الثرى الحران
 يا صلاح الزمان والدين إنا
 بك نرجو صلاح هذا الزمان
 « فأبو مرهف » وأنت شهابا
 ن بساح الجهاد مضطجان^(٤)
 همم لا تني تذكر بالما
 ضين من ذادة الحمى الشجعان
 ذكرتنا بكل أصيد حام
 لذمار ، وقائم لطعان
 هذه أمة أقام لها المجذ -
 د زماناً من خيرة الأزمان
 حيث كان الهدى يقود نواصي -
 ها إلى الحق والهدى والبيان

(٤) يكنى أسامة بابي المظفر ، وله ابن آخر اسمه « مرهف » كان من جلساء صلاح

الدين الايوبى .

ذاك عهدٍ مضى ونحن حيارى
في متاهِ الأفكار والأذهان
حَمِيمَ التَّيِّهَةِ فوقنا ، وَضَرْبِنَا
في مَدَاهِ البَعِيدِ كالعَمِيانِ
نَشْتَهِي في ظلامِ حَيْرَتِنَا المرَّ -
ضياءً ، بصيصَ نُورِ أمانِ
غابَ مَلأُحْنَا وَتَضَطَّخَ الأُمُ -
وواجٍ مِنْ حَوْلِنَا بلا حُسبانِ
يَهْدِي السَّالِكِينَ ينطلق الرِّكَدُ ..
بُ قوياً ، وَحِكْمَةِ الرُّبَانِ



أَطْيُوفَ الأَجَادِ سَرْعَانَ ما رُحَ -
تِ وَخَلَفْتِنِي مع الأشْجَانِ
حَابِساً بين أَضْلعِي زَفْرَاتِ
قد أُعَانِي من وَقْدِهَا ما أُعَانِي
إِذْ أَرَى أَرْضَنَا تُداسُ بأَقْدَا -
مِ رُعاةِ الأَحْقَادِ والأَضْغَانِ
وَأرى الصَّخْرَةَ الطَّهْورَ يُغَشِّي -
ها اكْتِسابُ لِنَكْسَةِ الحِذْلانِ

أَتَرَى تَهَضُّ الْعَزَائِمُ يَحْدُو -
ها تراثُ الأجدادِ عَبْرَ الزمانِ؟!
شِيزْرُ ، يا بقيةَ المجدِ والتَّسا -
ريخِ تُعْنِي على طُيُوفِ الأمانِ
شِهْدَ الْفَنِّ أَنَّ فِيكَ ظِلَالاً
هي عند الشَّجِيِّ مَهْوَى افْتِنانِ
وأنا مُغْرَمٌ رَأَى في مجاليدِ -
كِ بِجَالاً لُصْبُوءَ وَأَغْنَانِي
عِشْتِ في خاطري فسالتُ على قيدِ -
شارتي نَفْحَةَ مع الأَلحانِ
أنا لولا تراثك أَلْفَدُّ لولا
دَقْفَةُ السحرِ في الرُّبِّيِّ والمغاني
لم أكنُ مُفْصِحاً عنِ الوجودِ إِذْ هَزَّ -
فؤادي وقد أثارَ كيانِي
فاسْتَحِي أَن أثيرَ عندكِ أَشْجَا -
ني وما قد يَرِفُ في وجداني
فأَوْفِيكَ بعضَ ما لكِ من أَيْدِ -
يدي على فيضِ خاطري ولساني